جرائمُ الاستعمار الأوروبي في إفريقيا وآسيا

■ عبد الله بن عمارة[1]

ملخّص

اشـتملت هذه الورقة البحثيّة، على ذكر نماذج من الجرائم التي نفَّذها الاستعمار الأوروبيّ، في كُلٍّ من إفريقيا وآسيا، خلال القرنين 19م و20م. وقد عمدنا إلى قراءة السـياق التَّاريخي الذي أُرتكبت فيه، كما أشرنا إلى مُحدِّدات الخطاب الكولونياليّ، معتمدين في ذلك على المنهج التَّاريخي الوصفيِّ الأكثر مُلائمةً لهذا الموضوع.

وقـد اخترنا أربعة نماذجَ من جرائم الاسـتعمار في إفريقيـا، واكتفينا بذكر أكثرها وحشيّةً، وهي جرائمُ الإبادة الجماعيّة في الجزائر خلال القرن 19م و20م، ومجزرتي «دْيَابِي» و«مَاكُونْدِيي» في ساحل العاج، ثمَّ جرائم الاستعمار البلجيكيّ في الكونغو، واختتمنـا نماذجَ الجرائم في إفريقيا، بجرائم الاسـتعمار الألمـانيّ في ناميبيا. بينما اخترنا جرائمَ الاسـتعمار البريطانيّ في الهند، وجرائم الاسـتعمار الفرنسيّ في الهند الصينية، كنموذجين عن آسيا.

كما أنّ طبيعة هذا البحث، تتطلَّبُ جهدًا توثيقيًّا أكثر، لإحصاء كُلِّ جرائم الاستعمار في باقي قارات العالم، ابتداءً من القرن 16م، وتفكيكًا للخطاب الكولونياليّ بالتعمُّق أكثر في بنيته.

الكلمات المفتاحية:

الاستعمار الفرنسيّ- الاستعمار البريطانيّ- جرائم الإبادة- إفريقيا – الجزائر.

1 - باحث في قضايا الاستعمار، الجزائر.

مقدِّمة

بدأَ الاستعمارُ الأوروبيُّ كظاهرةٍ في القرن 16م، عقب الاكتشافات الجُغرافية الكبيرة، وتكثَّف في القرن 17م، وقد اتّجه أساسًا في هذه المرحلة، صوب البلاد البعيدة، فيما عُرفَ بالعالم الجديد، وتميَّزَ بشكله الاستيطاني. أمَّا ابتداءً من القرن 19م وما تلاه إلى القرن 20م، ومع ذروة الصّعود الرّأسماليّ في أوروبا الغربية، فقد استهدف أجزاءً من بلاد العالم القديم في إفريقيا وآسيا، واتَّسمَ بالطّابع الاستغلالي[1]. وتلازُم الاستعمار الحديث مع صعود الرأسماليّة، شرحه عالم الاجتماع البريطانيّ: توم بوتومو[2]، وسبقهُ في ذلك لينين في كتابه الشهير: «الاستعمار أعلى مراحل الرأسماليّة»، حيث شرحَ كيف أنَّ الاستعمارَ مكَّنَ الرأسماليّةَ من دخول طورٍ جديدٍ، اتَّسمَ بتصديرِ الرَّأسمال الماليّ وفائضِ الإنتاج للبلادِ المُسْتَعْمَرة، مُعتمدةً على استغلالها لليد العاملة الرَّخيصة، ونهب المواد الأوّلية.

ومن أجل تنفيذ مشاريعها، عمدت القوى الاستعماريّة، إلى استهداف البُنى السّياسيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة والاجتماعية للبلاد المُسْتَعْمَرة، وإعادة تشكيلها بُغية إخضاعها، كما اعتمدت خطابًا إيديولوجيًّا، نظَّرت إليه أسماءٌ بارزةٌ في عالم السّياسة والفلسفة والفكر والأدب، مثل: سيسل رودس، وجول فيري، وألكسيس دو طوكفيل، وألفونس دو لامارتين. ويقومُ هذا التَّنظيرُ على نفي الوجود الحضاريِّ للبلدِ المُستعمَر، ويُكرِّس «المهمة التمدينية» للاستعمار، التي تُعبِّرُ ضمنيًا عن التفُّوق الحضاري الأوروبي، من خلال ثنائيات «الأبيض» مقابل «الأسود»، و«المتوحش» مقابل «المُتمدِّن»، التي استعملها المُسْتَعْمِر من أجل تبرير هيمنته على المُسْتَعْمَر[3]، نفيٌ يسلبه إنسانيته ويُحوِّلـه إلى شيءٍ، كـما ذهبَ الكاتبُ المارتينيكي إيمي سيزير الذي صاغ معادلة: الاستعمار

1 - Church, R. 1951, p18

2 - Bottomore, T. 1983, p81- 85

3 - Le Cour Gandmaison, O. 2005, p81- 89

يســاوي التّشْــيِيءَ[1]، مع كُلِّ ما يقتضيه ذلك، من «شْرَعَنَة» للعنف والقسوة ضد الفئات المُقاومة له، والتي ســتتحوَّل، وفق الخطاب الكولونياليّ، إلى قُوىً مُتوحشة يجب إبادتها؛ لأنَّها تقفُ عقبةً أمام استكمال المسار التَّمديني. من هنا تبرز حاجة الاستعمار البنيويَّة لاتّباع نهج الإبادة من أجل تنفيذ مشروعه، وهذا ما تجلَّى واقعًا في تجارب اســتعماريّة استيطانيّة عديدة، كما وقع في أمريكا وأستراليا وغيرها، حيث نجدُ تلازمَ الغزو والاستيطان مع الإبادة الجماعيّة[2].

الإبادةُ الجماعيّة إذاً، هي في صميم الحرب الاستعماريّة، مباشرة، أو غير مباشرة، بتفكيك البُنى الاقتصاديّة للشّعوب المُستعمرَة، حيث تخلق شروطًا موضوعية للمجاعة وانتشار الأوبئة القاتلة.

وقــد ارتأينا في هــذه الورقة البحثية - معتمدين في ذلك على منهــجٍ تاريخيٍّ وصفي -، تحديد الحديث عن جرائم الاســتعمار الأوروبي زمانيًّا، في القرنين 19م و20م، ومكانيًا في إفريقيا وآســيا فحســب، مع الاكتفاء بذكر أربعة نماذج في إفريقيا، واثنين في آسيا على سبيل الحصر، - لأنها لم تكــن الوحيدة في تلك البلدان -، بدءاً بالجزائر، حيث اخترنا في هذا الصدد، مثالين فقط للجرائم التي ارتكبها الاســتعمار الفرنسيّ طيلة 132 سنة، إحداهما في القرن 19م، والجريمة الثانية وقعت في مُنتصف أربعينيات القرن 20م، ثم نموذجا آخر، عن الجرائم في ساحل العاج، والتي اكتفينا فيها بذكر مجزرتي «دْيَابِي» و«مَاكُونْدِيي» دون غيرهما، ونموذج آخر عن جرائم الاســتعمار البلجيكيّ في الكونغو، وختمنا النماذج المُختارة من إفريقيا، بالإبادة الجماعيّة للاســتعمار الألماني في حقِّ قبائل الهيرورو والناما في ناميبيا. فيما اخترنا نموذجين عن الجرائم الاســتعماريّة في آســيا، هما: جرائم الاستعمار البريطانيّ في الهند، وجرائم الاستعمار الفرنسيّ في الهند الصينية.

وقد ألقينا الضوءَ باختصارٍ، على الســياق التاريخي الذي جرى فيه الحدث الاســتعماري، وما رافق ذلك من سياسات نهبٍ وتدميرٍ، للتأكيد على تلازم النّهب والاستغلال، مع الإبادة والمجازر.

أوَّلاً: جرائمُ الاستعمار في إفريقيا

1 - جرائم الاستعمار الفرنسيّ في الجزائر

نجحت الحملةُ الفرنسيّة بقيادة دو بورمون سنة 1830م في إسقاط مدينة الجزائر، وكانت الأطماع

1 - Césaire, A. 1955, p 13

2 - Moses,A. 2013, p 23- 44

في نهب ثرواتها الزّراعية والمعدنيّة عاملاً رئيسًا في هذه الحملة، وبعد انهيار الحكم المركزي، لم يعد أمام الجزائريّين في المناطق الداخليّة، سـوى التحصُّن ببنياتهم التَّقليديَّة القبليّة والدّينيّة، من أجل مُقاومة الغزو من جهة، وإدارة شؤونهم من جهة أخرى.

أ. الإبادةُ الجماعيّة للقبائل في القرن 19م

عندمـا بدأَ الجيشُ الفرنسيّ يتقدمُ نحو سـهل مَتِّيجَة الخصـب، في ضواحي مدينة الجزائر في شـهر نوفمبر من السّنة نفسـها، شعر سـكان السّـهل بالخطر فتداعوا إلى تنظيم أنفسهم وإعلان المقاومة. فهاجمت المقاومةُ الشَّعبية بقيادة ابن زعموم، زعيم قبيلة فْلِيسَة، حاميةً فرنسيةً في حاضرة البُلَيْدَة، وألحقت خسائر كبيرة بها، وقد التحقت بها قوات يقودها الشيخ الصوفي سيدي السعدي، وتكاملـت مع قوات بومزراق الحاكم السـابق للمنطقة قبل انهيـار الإدارة المركزية، وكانت تلك فعليًّا أولى عمليات المقاومة الشَّعبية للجزائريين بعد سقوط عاصمتهم، حيث أمرَ عَقِبها الجنرال كلوزيل، الذي خلف قائد الحملة دو بورمون، بغزو الحاضرة وإبادة سكانها، بحيث شرع جنوده، بتنفيذ مجزرةٍ مروعةٍ، بذبح السّـكّان في الشوارع، فلم يسلم منها الشّيوخ والنّساء والأطفال ناهيك عن الرجال، كما ينقل إلينا الكاتب الفرنسيّ ديوزيد[1].

بـل حدثَ تقطيـعٌ للرُّضع وهم على صـدور أمهاتهم، كما أكد ذلك حمـدان خوجة المُعاصر للأحداث[2]. بحيثُ لا نعلم شـيئًا عن عدد الضحايا، ولكن قد يكونون بالآلاف، بالنَّظر إلى حجم المدينة آنذاك، وإلى قرار الجنرال كلوزيل الصَّارم بالإبادة الشَّاملة.

وفي سـنة 1831م، عُيِّنَ الدوق دو روفيغو، لقيادة المشروع الاسـتعماريّ في الجزائر، حيث واصل سياسة خَلفه الإجرامية، فلم تكن الإبادةُ الجماعيّة سياسةً ظرفيةً ولا استثنائيَّة، بل كانت مشروعًا مُمنهجًا وضروريًّا للحكومة الفرنسيّ[3]، من أجل اسـتكمال التوسُّع والاستيطان وإخضاع المقاومة، فأمرَ جيشه سنة 1832م، بمُباغتة مساكن قبيلة العَوْفِية، على ضفاف وادي الحرَّاش ليلاً وهم نيام، حيث لم يُوفر فيها القناصة، رجلاً ولا شيخًا ولا طفلاً ولا امرأةً، دون أن تتسنى لهم فرصة الدفاع عن أنفسه[4]، ثم عادَ بعدها

1 - Dieuzaide, V., 1880, p164

2 - خوجة، 2005، ص216

3 - Gallois, W. 2013, p69 - 88

4 - Christian, P. 1846, p143

فرسان الجيش الفرنسيّ مُبتهجين برؤوس القتلى على رماحهم[1]، وجاءَ بعضُ الجنود إلى أسواق الجزائر، لبيع أقراط النساء المقتولات، وهي لاتزال مُلطَّخة بالدماء، وأساور لاتزال مُلتصقة بالمعاصم المقطوعة، وبقايا اللَّحم البشري عالقة بها. وينقلُ لنا الكاتب الجزائري أبو العيد دودو في كتابه: «الجزائر في كتابات الرَّحالين الألمان: 1830م- 1855م»، قصة ذكرها الرحَّالة وعالم النبات الألماني فيلهلم شـيمبر، الذي أقام في الجزائر بين سنتي 1831 و1832م، في كتابٍ له، رواها له أحدُ الجنود الفرنسيّين المُجرمين الذين شاركوا في إبادة قبيلة العَوْفِيَة بفخرٍ وكبرياء: « كان هناك طفلٌ واقفاً في مُؤخرة الخيمة، فصحت به: اخْرج يا حقير وإلَّا سـوف أطلق رصاصةً في فمك، ولكن البهيمةَ لم يطعني، وعندما ضغطت على الزّناد طار نصف رأسه وتعلَّق بكتان الخيمة»، ويُعلِّقُ المُؤلف الألماني على رواية الجندي القاتل، فيقول بسخريّة مُـرَّة: «كان ينبغي للطفل البدوي البريء الفزع، أن يطيع أمرا وُجِّه إليه بلغةٍ أجنبية لا يفهمها...»[2]، وقد قدَّر الباحثون الجزائريون الجادون، عدد الضحايا في هذه المذبحة، باثني عشر ألفًا، هم العدد الإجمالي للقبيلة، وقد أجَّجت هذه المجزرة روح المقاومة في المنطقة من جديد.

ابتكرَ الجيشُ الاسـتعماري أسلوبًا أكثر فتكًا بالسّـكّان وأقل تكلفةً، هو أقرب إلى الإعدام في غرف الغاز، ففي سـنة 1845م، تداعت طُرق صوفية عديدة إلى إعلان الجهاد، وقد شاركت قبيلة أولاد رياح في هذه الانتفاضة، فغزاها بيليسييه، تنفيذًا لأوامر قائده بيجو، فأحرقَ ممتلكاتها وصادر أراضيها، فاحْتمت، - وعددها فاق الألف شخص رجالاً ونساءً وأطفالاً مصطحبين بهائمهم-، بغارٍ مُحصَّن في جبال الظهرة في غرب البلاد. ولما رفضت أوامره بالاستسـلام، جلب الحطب وأوقده عند مداخل الغار، وفي اليوم الثـاني ضاعف إيقاد النار بمزيدٍ من الحطب، ليختنقَ أزيد من ألف شخص في هذه المجزرة، كما تُؤكد مصادرٌ فرنسيةٌ عديدة. إذ كان الأطفالُ الرضع مُلتصقين بأثداء أمهاتهم، والجثث مُتراكمة بعضها فوق بعض، وبسبب هول الاختناق الذي هيَّج الحيوانات داخل الغار، فقد بدأت ترفس الأطفال والنساء، وكان الرجالُ يحاولون وقفها فيمسكونها من قرونها، وقد وُجدت جثث لرجال متشبثين بقرني ثور للدفاع عن نسائهم وأطفالهم، وقد أحدثت المجزرة - بعد تسريب أخبارها - ضجة في أوروبا[3]؛ حيث وصفت جريدة التّايم اللّندنية في عددها في 14 جويلية

1 - Pélissier de Reynaud, E. 1854, p247

2 - دودو، 1975، ص19-20

3 - Gallois, W. 2012, p35- 59

1845م المجزرةَ، بأنَّها «مذبحة فظيعة جعلت حتَّى المتوحِّشين يخجلون»، ومع ذلك فقد اندفعَ الجنودُ الفرنسيّون لنهب الأشياءِ الثَّمينة عند الضَّحايا[1]. ليست هذه سوى بعض النَّماذج من سياسة الإبادة التي انتهجها الاستعمارُ الاستيطانيّ في الجزائر في عقوده الأولى، ويحقُّ لنا أن نتساءلَ عن إمكانيَّة الجزم بأرقام دقيقة لضحايا السّياسة الاستعماريّة في القرن 19م، من خلال التقديرات النسبية للباحث الجزائريّ المُتخصص في الدّراسات الدّيموغرافية: كمال كاتب، التي تأخذ في الحسبان ضحايا القوى الجزائرية المقاتلة أثناء المعارك وبعدها، فإنَّ عددَ ضحايا الغزو الاستعماري من الجزائريين بين 1830-1875م، يصلُ إلى 825000 قتيل. يُضاف إليهم الخسائر البشريّة الناتجة عن سياسة المُصادرة والتفقير المُنهجة للمشّروع الاستعماريّ في النّصف الثاني من القرن19م، التي جعلت السّكّان أكثر عُرضة للأوبئة والمجاعات، أدَّت إلى تناقصٍ كبيرٍ في عدد سكان الجزائر الذي قُدِّر بحوالي 3ملايين ونصف في 1830م[2]، ما يعني أنَّ الاستعمارَ في الجزائر في القرن 19م قد أبادَ أكثرَ من ثُلث سكان البلاد.

ب: مجازر 8 ماي 1945 في سطيف وغالمة وخرَّاطة

قد تكون بعضُ ملامح المشروع الاستعماري الفرنسيّ في الجزائر، تغيَّرت من حيث الشكل في القرن 20م، مُقارنة بالقرن 19م، لكن مضمونه بقي يعكسُ العقيدةَ الكولونياليّة نفسها، وظلَّت سياسة الإبادة تُعيدُ إنتاجَ نفسها وتُجدد أسماءها الإجرامية من كلوزيل وبيليسييه وبيجو وغيرهم الكثير، من المُجرمين الذين تفنَّنوا في الإبادة، إلى الجنرال رايموند دوفال، الذي ارتكب واحدةً من أفظع الجرائم الفرنسيّة في شهر ماي من سنة 1945م.

بعد انتهاءِ الحرب العالميّة الثانية، دعا حزبُ الشّعب المحظور أنصاره، إلى الخروج في مظاهرات سلميّة تحملُ الأعلامَ الجزائريّة، وترفض اعتقال زعيمه مصالي، وتطالبُ بالاستقلال التّام[3].

بدأت المظاهراتُ في أول ماي، عيد العمّال العالمي، في مُختلف المدن الجزائرية، فحدثت اصطدامات مع الشّرطة الفرنسيّة في مدينتي الجزائر ووهران، وسقطَ قتلى وجرحى، ثم بدأت

1 - سعد الله، 1992، ص228 - 230

2 - Kateb, K. 2010, p46- 47

3 - Benot, Y. 2001, p 9- 19

الاحتكاكات بين المُتظاهرين الجزائريّين والمُستوطنين في الأيام التي تلته. في 8 ماي انقلبت الأوضاع في منطقة الشمال القسنطيني، حيث انطلقت مظاهراتٌ كبيرةٌ في مدينة سطيف، تحمل شعارات تطالب بإطلاق سراح مصالي وبالاستقلال، ثم أطلقت الشّرطة الفرنسيّة، مدعومةً من المُستوطنين، النَّار على متظاهـرٍ كان يحمل العلم الجزائري فأرْدَته قتيلاً، وسـقط آخرون جرحى، ليرد المتظاهرون الغاضبون باستهدافٍ الأوروبيين في الشوارع بالأسلحة البيضاء. وسرعان ما تحوَّل الغضب إلى انتفاضة واسعة، امتـدت نحو المدن والأرياف القريبة من سـطيف كخرَّاطة، وأوقاس وصـولاً إلى ڤالمة، حيث بدأت الإدارةُ الاستعماريّة في توزيع السلاح على المستوطنين، الذين بدأوا يطلقون النار على كُلِّ ما يتحرك.

وابتداءً من 10 ماي 1945م، باشر الجنرال دوفال في مخططٍ عسكري لسحق الانتفاضة، اعتمد فيه على الغارات المُكثَّفة للطيران اسـتمرت أسـبوعين، وعلى القصـف العنيف من البحرية التي دكَّت القرى الجبلية، والتي أبادت تجمُّعات سكنية كاملة، ناهيك عن جرائم مليشيات المُستوطنين الأوروبيـين التي سـلَّحها الجيش الفرنـسيّ، والتي نفَّذت يوميًّـا عمليات انتقاميـة بالجملة ضد الجزائريين، وقد كتب أحد الصحفيين الأمريكيين يصف ذلك: « الجثث في كُلِّ مكان في الشوارع، القمع كان أعمى، إنها مجزرة كبيرة، رأيت جنودًا سينغاليين(يخدمون في الجيش الفرنسيّ) يقتلون، يغتصبون، ينهبون...»، كان يُطلق النار على كُلِّ عربيٍّ لا يحملُ شـارةً مربوطةً في ذراعه تُسلَّم من الإدارة الاستعماريّة لمن يعملون في خدمةٍ عموميةٍ[1].

وقـد خلص تقرير فرنسي عن أحداث سـطيف بهذه العبارات»: في كُل مسـاء، ولأيام عديدة، كانت السـيارات المُصفَّحة للَّفيف الأجنبي والوحدات السـنغالية، تجول شوارع المدينة وتُطلق النارَ على الأهالي (الجزائريين)، وتُنفِّذ توقيفات بالجملة»[2].

يصعـبُ الجزمُ بعـددٍ دقيقٍ لضحايا مجازر مـاي 1945م، إذ تتحدثُ المصـادرُ الجزائرية عن 45000 قتيل، وفي تصريحٍ منسـوب إلى السـفير الأمريكي في القاهرة آنذاك، ينقل العدد نفسـه، وتختلفُ تقديراتُ الضحايا في المصادر الفرنسـيّة، ويُعدُّ رقم 15000 قتيل هو أعلاها، وهو الذي أوردته لجنةُ التحقيق برئاسة الجنرال توبير[3].

1 - Mekhaled, B. 2000, p133- 134

2 - Goldzeiguer, A.R. 2002, p285

3 - Courrière, Y. 1968

2 - جرائمُ الاستعمار الفرنسّي في ساحل العاج : دْيَابي ومَاكُونْدِيي

سقطَ غربُ إفريقيا في يد القوى الأوروبية، كنتيجةٍ مباشرةٍ للاستكشافات الجغرافيَّة التي بدأت مُبكرًا، وما تلاها من فتح مراكز تجاريّة جسَّدت الأطماع في نهب ثروات المنطقة، وقد بدأ المشروع الاستعماريّ في هذا البلد، بين سنوات 1838-1842م[1]، متجسّدا في شكل مُعاهداتٍ مع الزّعماء المَحليين في المناطق السَّاحلية.

رافقت المُواجهات العسكريةُ مع الفرنسيّين - التي خاضتها المقاوماتُ الشَّعبية المُختلفة لقبائل ما أصبح يُعرف لاحقًا بساحل العاج في القرن 19م، - إجراءات مصادرة الأراضي والنهب والجرائم ضـد الأهالي، التي تقـعُ في بنية أي مشروع كولونيالي غربي، لكننا سـنكتفي بالتطرُّق إلى مجازر دْيَابِي ومَاكُونْدِيي في شهر جوان من سنة 1910م.

من بين القبائل التي قاومت الاستعمار بشراسة سنة 1910م، كانت قبائل الأباي، والتي تحالفت معها قبائل الأَتِيي، وتنسـبُ كلاهما نفسـيهما إلى المجموعة اللغوية والإثنية الكبيرة المُنتشرة في غرب إفريقيا المعروفة بالأكان[2]، والمجزرتان ارتُكبتا في قريتين، إحداهما دْيَابِي التي ينتمي سكانها إلى قبائـل الأَتِيي، والأخرى، إلى الأباي وهي مَاكُونْدِيي، بـإشرافٍ من الحاكم العام الفرنسيّ في سـاحل العاج غابريال غابريال أنغولفان، في حقِّ السّكّان، بما فيهم الشـيوخ والنسـاء والأطفال.

أ. مَجزرة دْيَابي

حدثت هذه المجزرة، عندما هاجمت مجموعاتٌ من الرُّماة الفرنسيّين - بقيادة أليساندري - قريةَ دْيَابِي بحثًا عن مقاومين ادّعت أنهم وجدوا ملاذًا فيها، وباشرت في اعتقالات أرعبت قبائل الأَتِيي، الذين هرعوا فارين من القمع، فبدأ الجنود الفرنسـيّون في إطلاق النار عليهم، فأردوا أربعةَ رجال وطفل في العاشرة من عمره، وست نسـاء، ستُقطع رؤوسهن بعد ذلك، ثم أضرموا النار في القرية ونهبوا ما فيها من الماشية، ثم أيامًا بعد ذلك، جمع الجنود النساء والأطفال في ساحة القرية، وبدأوا بإطلاق النار عليهم من مسـافةٍ قريبة، ثم قطعوا رؤوسـهم، وأطلقوا النار على من حاول الفرار من المجزرة، فكانت الحصيلة 54 قتيلاً بينهم 20 رجلاً و22 امرأة و10 أطفال، كما ألقى الجنودُ القبضَ

1 - Gouvernement Générale, 1906, p5- 17

2 - كيبري، 1988، ص335

على ثلاثة رجال ممن حاولوا الفرار، فقطَّعوا رؤوسهم، فيما أُطلقت النار على الأطفال الصغار وهم على ظهور أمهاتهم[1].

ب. مجزرةَ ماكُونْدِيي

في الوقت الذي كان فيه الجنودُ الفرنسيّون يمارسون القتلَ الذريعَ بحقِّ قبائل الأَتِيي، فإنَّ آلة القتل لم توفر جيرانهم من الأباي في قرية ماكُونْدِيي، فالمجزرة بدأت في سياق انتقامٍ من القرية التي ينتمي إليها دليلٌ فارٌ، والذي كان يعملُ لصالح الفرنسيّين، ممَّا تسبَّبَ في فقدان الجنود الفرنسيّين للطريق، وقد طلبَ القائدُ لافيجري من مرؤوسه السينغالي اقتحام القرية وأخذ عشر رهائن من أعيانها، حتى يُسلِّموا الدَّليلَ الهاربَ خلال نصف يوم، وقد بحث أبناءُ القرية عنه بلا جدوى، طالبين تمديد مُهلة التَّسليم، لكنَّ قائدَ الجند، لم ينتظر، وأمر بقتل الرَّهائن وقطع رؤوسهم ثم آذانهم، وتسليمها إلى القائد الفرنسيّ لافيجري، كدليلٍ على تنفيذ المهمة[2].

جاءت هاتان المجزرتان، في أعقاب انتفاضة الأباي، التي أُخمدت بشدةٍ وراحَ ضحيتها المئات من المقاومين المُسلحين، كما راحَ ضحيتها العديد من السّكّان العُزّل.

3 - جرائمُ الاستعمار البلجيكيّ في الكونغو

عرفت المنطقةُ الوسطى من إفريقيا، المُمتدة من جمهورية إفريقيا الوسطى إلى أنغولا، ومن المُحيط الأطلسي إلى البُحيرات الكُبرى، تنافسًا استعماريًّا كبيراً للسيطرة عليها، كنتيجةٍ مُباشرةٍ لحركة الاكتشافات الجغرافية، فسقطت فعليًا في يد القوى الاستعماريّة الأوروبية في نهاية القرن 19م، وإن كانت هذه المشاريعُ وفيةً لأساليب النهب والجرائم الوحشية نفسها ضد السّكّان الأفارقة، إلَّا أنَّ ما حدث في دولة الكونغو الحرة، أو ما أصبح يُعرف لاحقا بالكونغو البلجيكيّة، التي تحوَّلت لمِلْكِية خاصة[3] للملك ليوبولد الثاني، في أعقاب مؤتمر برلين (1884-1885م)، يُعدُّ بلا شك النموذج الأكثر تجسيدًا للإبادة الجماعيّة الممنهجة.

1 - Viti, F. 2017, p61- 66

2 - F. Viti, les massacres de.., p67- 70

3 - Castelein, A. 1907, p9- 10

لا تـتردّدُ الكثيرُ من المصادر والكتابـات التاريخية الغربية، في اسـتعمال مصطلحات صادمة للتعبير عن وحشية الاستعمار البلجيكيّ في الكونغو، بقيادة الملك ليوبولد الثاني، من قبيل الإبادة الجماعيّة والجرائم الوحشية، بل ومصطلح «الهولوكست المنسي» عند الكاتب والمؤرخ الأمريكي آدم هوتشسـكيلد (Hochschilid, A. 1998)، وقـد رسَّـخ نظامًا قائمًا على نهـبِ الثروات، نظامٌ مصحوبٌ بأفظع الجرائم وأبشعها بحقِّ السّكّان المحليين، الذين أُجبروا بالقوة على العمل لحسابه في اسـتغلال المطّاط والعاج ونقله إلى موانئ التصدير، وقد كان منهم كبارٌ في السّـنِّ، ناهيك عن النساء والأطفال، وسط حملات مُنظَّمة من العنف، من تعذيبٍ وقتلٍ جماعيّ وتدميرٍ كاملٍ لقُراهم[1].

كـما كانت حمـلاتُ العقاب الجماعي تـزدادُ حدةً، كلما انطلقت مقاومةٌ شـعبيةٌ مُسـلَّحة بين السّـكّان، كما حدثَ في منطقة كاسـاي، التي مارس فيها الجنود البلجيكيّون أبشع أنواع الجرائم، من قتلٍ وتشويه للسكان بقطع الأيدي والأرجل. لم يُوفر جنودُ الملك ليوبولد الثاني، في ممارساتهم الوحشية أحدًا من السّكّان المحليين في الكونغو، بمن فيهم الأطفال والنساء، وقد تواترت الشهاداتُ في أواخر القرن 19م لمُبشرين مسـيحيين وصحفيين وقناصل غربيين عن مجازر الإبادة الجماعيّة ضد الرجال والنساء والأطفال، التي شاهدوا آثارها القاسية، على غرار شهادات تحدَّثت عن الضابط ليـون روم، الذي كان يتباهى بالسـياج الذي يحيـطُ بحديقته، لكونه بناهُ بجماجم السّـكّان الذين اصطادهم بيده، أو الضابط فان كيرك هوفن، الذي كان يتفاخرُ بأنه كان يُعطي مكافأة مالية لجنوده، لكُلِّ من يأتيه برأسٍ من السّـكّان المحليين، أو عن وجود خمسـين من الجثـث المُتراكمة لرجالٍ ونساءٍ وأطفال، قتلهم الجنود البلجيكون في إحدى القرى فقط، لأنهم لم يجمعوا كمياتٍ كافيةٍ من المطاط[2]، أو شهادات عن انتهاكات وحشية عاينها أصحابها عن قرب، من قطع للأيدي وللأرجل وللأنوف والآذان وللأعضاء التناسلية وللاغتصاب، التي كانت غالبًا عقابًا للسكان المُجبَرين على جمع المطاط ونقله، مثل شهادة تشالرز ليزيمر الحاكم البلجيكيّ للمنطقة الاستوائية، التي أدلى بها عند خروجه من الخدمة، قال فيها: إنه كان يجب عليه أن يقطعَ الأيدي والأرجل والأنوف والآذان، حتى يضمنَ نجاحَ عمليات جمع المطاط، أو من قبيل شهادة غاي بوراوز، وهو قائدٌ إنجليزي عمل لصالح الملك ليوبولد الثاني في الكونغو لسـتّ سنوات، لكنه آثر بعد أن رجع إلى بلاده أن يفضحَ

1 - Doyle, A. 1909, p3- 37

2 - Calmeyn, M. 1912, p 268

ما شـاهده من ممارسـات البلجيكيّين الوحشـية في حقِّ الأهالي، جمعها في كتابٍ بعنوان :» لعنة إفريقيا الوسـطى»، كان أكثرها قساوة شـهادته عن ضابطٍ بلجيكي قطع وأحرق أيادي رجال ونساء وأطفال من السّكّان المحلّيين، لأنهم لم ينجزوا ما طُلب إليهم من جمعٍ للمطاط، على أكمل وجه، وأخرى عن مشاهدته لثمانين امرأة، قام الجنود البلجيكيّون باستئصال أثدائهن ثم تُركن حيّات، وقد اتهمَ القائدُ الإنجليزيُّ الحكومةَ البلجيكيّة بممارسة الاستعباد في حقِّ السّكّان المحليين، وبتشجيع جنودها على ارتكاب الجرائم، بالتستُّر عليهم وحمايتهم[1]. لقد تسبَّبَ مشروعُ الملك ليوبولد الثاني الاسـتعماري، في خفض السّكّان المحليين إلى النصف، فقد دفع فعليًا عشرة ملايين من السّكّان حياتهم، إمَّا قتلاً أو مرضًا أو جوعًا، على مذبح نهب المطاط في الكونغو.

4 - جرائمُ الاستعمار الألماني في ناميبيا: قبائل «هيرورو» و«ناما»

التحقت ألمانيا مُتأخّرة بركب الدُّول الأوروبيَّة التي تقاسـمت مناطق واسـعة في إفريقيا، حيث بدأت بالاسـتيلاء على الأراضي التي لم تُسـتعمر بعـد، وكانت ناميبيا إحداهـا، وكان الهدفُ هو السّيطرة على موادها الأولية، وتحويلها إلى سوقٍ لتصريف الفائض من إنتاجها.

في النّصف الثّاني من القرن 19م، اسـتقرَّ أوائلُ المستوطنين الأوروبيين في ناميبيا، وكان أغلبهم من المزارعين الألمان، الذين اهتموا بتربية المواشي، وكان ذلك يتطلب أراضٍ واسعة، فكان توقيعُ أول عقدٍ لشراء الأرض في سـنة 1883م، وقَّعه تاجر ألماني هو أدولـف لودريتز مع أحد زعماء قبيلة ناما، أعقبته اتفاقات أخرى مع الزعامات القبلية المحلية[2]، فكان هذا الاختراق الرأسماليّ فعليًا البداية غير الرسمية لاسـتعمار ناميبيـا[3]. ومع نهاية القرن 19م، أصبحت أحسـنُ الأراضي الرعوية الناميبيـة مُلكًا مُحتكرًا للشركات الألمانيّة، فأضحى أبناءُ القبائل المحلية يعملون لدى الألمان على أراضيهم بأجور زهيدة[4].

وهكذا وجدت قبائل ناميبيا نفسـها، محاصرةً في مناطقها القبلية الفقيرة، فلم يكن ثمةُ من خيار أمامها سـوى المُقاومة، بدأت قبيلة الناما انتفاضتها على الاسـتعمار الألماني في سـنة 1897م، ثم

1 - Burrows,C. 1903
2 - Lindqvist, S. 1998, p197- 198
3 - Alexander, N. 2013, p28- 30
4 - Stenmetz, G. and Hell, J. 2006, p147- 183.9

تبعتهـا قبيلة الهيرورو بعد ذلك بسـبع سـنوات، بقيادة صامويل ماهاريرو، حيـث بدأت المقاومة بتخريب خطوط السـكك الحديدية، التي كانت تخترقُ أراضيهم لتنقلَ ما تدرُّه ماشـيتهم من ثروة إلى ألمانيا، وسرعان ما تحوَّلت هذه المقاومة إلى مقاومة شـعبية ناميبية، بعد أن انضمَّ إليها العديدُ من المُتضررين من السّياسـة الاسـتعماريّة الألمانيّة، من قبيلة الناما وغيرهم[1]. وكان الردُّ الألماني عليها، تعيين جنرال ألماني، عُرف بأساليبه الوحشية التي سبق وأن طبَّقها في شرق إفريقيا، هو لوثار فون تروثا، الذي كان قراره حاسـمًا، الانتهاء، من قضية قبيلة الهيرورو[2]، أي الإبادة الجماعيّة لكل قبيلـة الهيرورو، ففي معركة هاماكاري- واتربيرغ في صيف سـنة 1904م، قرَّرَ تروثا أن يُبيدَ، - زيادة على سـتة آلاف مُقاتل- كل من كان يرافقهم من المدنيين، وقد كان عددهم يتراوح بين عشرين ألفًا وثلاثين ألفًا. كتب أحدُ العسكريين الألمان في يومياته: « قيل لنا بصراحة، إنَّ هدفَ العملية هو إبادة القبيلة عن بكرة أبيها»، وفي نصٍ للجنرال تروثا نفسه يُخاطب فيه جنوده:» كل من يجلب لنا فردًا من الهيرورو سـنكافئهُ ب1000 مارك، ومن يجلب لنا قائدهم صاوميل ماهاريرو سيتسلم 5000 مارك، كل فـرد من الهيرورو عليه مغادرة البلاد، وإلاَّ أجبرتهم على ذلك بمدافعي الكبيرة، كل واحد منهم وجدتموه في حدود أرضنا، مُسـلحًا أو غير مُسلَّح، بماشيته أو بدونها، سيُقتل، لن أقبلَ أيَّ امرأةٍ أو طفلٍ، عليهم أن يرحلوا أو يموتوا، هذا قراري فيما يتعلَّق بشعب الهيرورو»[3].

وفي إحـدى رسـائله في 4 أكتوبـر 1904م يكتبُ بصراحـة وعنهجية عنصريـة صارخة: « أمة الهـيرورو يجـب أن تُباد، أو أن تُطرد من المنطقـة إن تعذَّر ذلك عسـكريًا... لقد أعطيت أوامري بإعدام المساجين، وإبعاد النساء والأطفال إلى الصحراء..إنها بداية حرب عرقية»[4]

وفي شهادة أخرى، لأحد قادة الحملة الألمانيّة يقول:»...أنا أعتبر أنه يجب إبادة أمة الهيرورو، أو طردها من المنطقة بكل الوسائل المُمكنة، إن لم يكن ذلك ممكنًا من الناحية التكتيكية...الأنسب هو هلاك هذه الأمة،..سياستي هي استعمال العنف بكُل الوسائل المُمكنة، بما فيها الإرهابية، أُدمرُ القبائلَ الإفريقية بإهراق الدم والمال، ولن يظهرَ شيءٌ جديدٌ ومُستدامٌ سوى باستكمال عملية التطهير»[5].

1- Alexander, N. Op.Cit. p56- 62

2 - Bley, H. 1971

3 - Bridgman, J. Worley, L.J. 1997, pp. 3- 40, p. 14

4 - Drechsler, H. 1980, p161.

5 - Gewald, J.B. 1999, p174.

بعد سحقه لمقاومة الهيرورو، وإبادته لأغلب أفراد القبيلة، ووضع الآلاف منهم في مُعسكرات الاعتقال الوحشـية، وفرار بعضهم إلى جنوب إفريقيا، عاد تروثا في سـنة 1905م لتنفيذ المخطط نفسه بحقِّ قبيلة الناما، التي عرفت المصير نفسه، وتوزع الباقي بين معسكرات الاعتقال والنفي.

تختلفُ التقديرات عن عدد ضحايا الإبادة الجماعيّة لقبيلتي الهيرورو والناما، ففيما أحصى تقريرٌ لمنظمة الأمم المتحدة في سـنة 1985م، عدد ضحايـا قبيلة الهيرورو بـ 65000 ضحية ، وهم ثمانون بالمئة من أفراد القبيلة، وخمسين بالمئة من قبيلة الناما، أي 10000 ضحية، تحدَّثَ البعضُ عن 24000 ضحية من الهيرورو، وذهبَ بعضُ المُؤرِّخين إلى حدِّ إحصاء 100000 ضحية، لكن هذا الاختلاف لا ينفي إجماعَ المُؤرخين حول الإبادة الجماعيّة التي حصلت في بداية القرن 20م بحقِّ هاتين القبيلتين[1].

ثانيًا: جرائمُ الاستعمار في آسيا

1 - جرائم الاستعمار البريطانيّ في الهند

إنَّ المقصودَ بالهند في هذا السياق، هو المجال الواسع في جنوب آسيا، والذي يمتدُّ من جبال الهملايا إلى رأس كمورين، ومن بلوشتسان إلى بورما. وقد استغرقت السيطرةُ على هذه المنطقة من قِبَل البريطانيّين، أكثر من قرن من الزمان، ابتداءً من سـنة 1757م، لتولد معها «الهنـد البريطانيّة» أو «الراج البريطانيّ»، أكبر الكيانات الاستعماريّة آنذاك، والتي أضحت تتشكَّلُ منها حاليّا أربع دول هي: الهند وباكستان وبانغلادش وبورما. وفي تجسيدٍ آخر للتلازم بين الرأسماليّة والاستعمار، لعبت الهيئةُ الكولونياليّة المُسمَّاة «شركة الهند الشرقية»، الدورَ الرئيسَ في السـيطرة على الهند. لقد اهتدى الاستعمارُ البريطانيّ، عندما فشلَ في السيطرة العسكرية الكاملة على الهند قبل سنة 1757م، لمشروعٍ أقل كلفة من السيطرة العسكرية، وهو نهبُ البلاد من خلال منظومة قانونية جبائية واجتماعية واقتصادية، شرَّعت نهبَ واستغلالَ مواردَ الهند ودمجها في الاقتصاد الرأسماليّ الاستعماري، باعتبارها مصدرًا لليد العاملة الرخيصة وللمواد الأولية، وسوقها للبضائع المُصنَّعة لخلق التراكم الرأسماليّ للمركز في بريطانيا، مع ترسيخٍ للبندين المؤسسين للخطاب الكولونياليّ، وهما: المركزيـة الأوروبية والمهمة التمدينية للاسـتعمار، بدمج الهنود في المدنيّة الأوروبية، كما أشـارَ المُؤرِّخُ والسياسي البريطانيّ توماس بابينغتون ماكولاي في تقريره الشّهير[2].

1 - Kotek, J. 2008, p189

2 - Maculay, T.B. 1835

وكان ما يُسـمَّى قانونُ القبائل الإجرامية الصادر في سنة 1871م، واحدًا من أشدِّ أجزاء تلك المنظومة القانونية عنفًا وعنصريةً، بحيث صنَّف تجمعات قبلية برمَّتها، في خانة الإجرام، مع ما يستدعي ذلك من قيود على حركة أفرادها، وكانت السَّرديّة التَّاريخيّة البريطانيّة تعدُّ هذا القانون، الذي عَرفَ تعديلات أخرى في فترات لاحقة، جزءاً من المهمة التمدينيّة للاسـتعمار، المُتمثلة في إعادة تأهيل ودمج المُجتمعات المحليّة الهنديّة في الحضارة[1].

قادت شركـةُ الهند الشرقيّة، من خلال نظامهـا القانونيّ العنصريّ، عمليّة نهـبٍ مُمنهجةٍ لموارد البلاد، ساهمت بشكلٍ مُباشرٍ في الإلحاق الإداري والعسكري والاقتصادي للهند، بمركز الإمبراطورية البريطانيّة، مـمَّا هيّأ الظروفَ لمُقاومات محليـة ومحدودة، كان أبرزها ثـورة 1857م المعروفة بثورة السـيبوي (السيباهي)، والتي بدأت بتمرد الجنود الهنود التابعين إلى الشركة الكولونياليّة، ثمَّ ما لبثت أن تحوَّلت إلى ثورة شاملة، والتي حقَّقت في بداياتها انتصارات عسكرية، لكنها سُحقت في النهاية، وقد ارتكب البريطانيّون في مواجهتهم لعنف الثورة جرائم بلا رحمة، خاصة في أثناء تقدُّمهم إلى مركز تحصُّن الثوار في كانبور، عندما أمرَ المُقدَّم: جيمس سـميث نيل بإحـراق القرى الواقعة في الطريق وشـنقَ كُلَّ سكانها، وبعد سيطرتهم على المدينة، ارتكبوا جرائم قتل وتعذيب بشعة بحقِّ السّكّان، ثم واصلوا العقاب الجماعي في مختلف المناطق التي كان يسـيطر عليها الثوار، رغم فشـل الثورة، إلَّا أنها بتقديمها للأمة الهندية أبطالاً وشـهداء، أسَّست لمسـار النضال من أجل الاستقلال[2]، ولتشكل «الوطنية الهندية الحديثة» التي عادَ الاستعمارُ البريطانيّ إلى قمع نشاطها بوحشية، كما حدث في مدينة أمريسـتار في إقليم البنجاب، في 13 أبريل 1919م، حينما تجمَّع الهنودُ في مظاهرة سلمية في حديقة عمومية، من أجل مطالبة النظام الاسـتعماري بمنح بلدهم الاستقلال، فحاصرتهم القوات البريطانيّة بقيادة الجنرال ريجنالد دير، وأطلقت عليهم النار فأرْدت المئات قتلى ومثلهم من الجرحى[3].

قارب المُؤرِّخان البريطانيّان: كيم فاغنر ومارك كوندوس العنف المُفرط الذي اقترفه الاستعمار البريطـانيّ خـلال ثـورة 1857م أو مجزرة أمريسـتار سـنة 1919م، مقاربةً بنيويـة، وضعت تلك الأحداث ضمن النماذج التي تُعدُّ جوهريةً وأساسيةً بالنسبة إلى الإمبراطورية، ولم يعد يُنظر إليها

1 - Fourcade, M. 1994, p187211-

2 - Pouchepadass, J. 2014, p293 -297

3 - Lloyd, N. 2011, p178

كأحداث غير عادية أو شـاذة[1]، فلحظاتُ الأزمات كانت كفيلةً بإظهـار الطبيعة الحقيقية للإدارة الإمبراطوريـة في الهندز قادَ الاسـتعمارُ البريطانيّ في الهند، إبـادةً جماعيةً غير مباشرة، بمشروع تفقير مُمنهج من خلال نظامه الكولونياليّ الرأسـماليّ العنيف، الذي تسبَّبَ فعليًّا في إبادة ملايين الهنود، قدَّرهم الباحثان الأكاديميان: جيسون هيكيل وديلان سوليفان، في دراسة علمية نُشرت في المجلة الأكاديمية المعروفة World Development ب165 مليون بين سـنة 1880م و1920م[2]، ولم يشـملا في دراستهما عشرات الملايين الذين قضوا في مَجاعات تسـبَّبت بها أيضًا سياسات الحكومة البريطانيّة برئاسـة وينستون تشرشـل، على غرار مجاعة البنغال سنة 1943م، والتي مات فيها ثلاثة ملايين هندي جوعًا، في وقتٍ كانت بريطانيا تُصدِّرُ فيه الطعام، ويُحاجج الأكاديميان بأنَّ النظامَ الكولونياليّ البريطانيّ دمَّر الصناعة الهندية، فقبل الاسـتعمار كانت صناعةُ النسيج الهندية مُزدهرةً، تصدِّر منتوجاتها إلى مختلف أنحاء العالم، ولم يكن باستطاعة منتوجات النسيج البريطانيّة منافسـتها، لكن الأمورَ تغيَّرت فور اقتحام شركة الهند الشرقية لمنطقة البنغال سـنة 1857م.

فحسب المُؤرِّخة: مادهوسري موكيرجي أُلغيت التعاريف الجُمركية الهندية، ممَّا أفسحَ المجالَ للمنتوجات البريطانيّة لاكتسـاح السوق الهندي، ثم أُوجدت منظومة ضرائبية أثقلت كاهل الهنود وجعلتهـم عاجزين عن تسـويق إنتاجهم في الداخل، ناهيك عن تصديره، ممَّا أدَّى فعليًّا لسـحق الصناعيين الهنود وتدمير صناعة النسـيج الهندية. وهذا بالضبـط ما تفاخر به رئيس الهند الشرقية والصين أمام البرلمان البريطانيّ بقولـه:» لقد نجحت هذه الشركة في تحويل بلدٍ صناعيٍّ إلى بلدٍ مُصدِّرٍ للمواد الخام». ففي الوقت الذي راكم الصناعيون البريطانيّون الأرباح، فُقِّرَ الهنود وأصبحوا عرضةً للمجاعة والأوبئة، فحسـب المُؤرِّخ الاقتصادي البريطانيّ روبرت ألين ارتفعت نسبة الفقر من 23 بالمئة سـنة 1810م إلى أكثر من 50 بالمئة في منتصف القرن 20م، وانخفضت الأجورُ إلى أقصى حدٍّ في مُنتصف القرن19م، بينما انتشرت المجاعاتُ التي حصدت الملايين مـن الهنـود.

2 - جرائمُ الاسـتعمار الفرنسيّ في الهند الصينية

الهندُ الصينية، هي شـبه جزيرة تقعُ إلى الجنوب من الصين وإلى الشرق من الهند، وتحمل دولها الـتأثيرَ الحضاريَّ الصيني والهندي معًا، والكيانات التي خضعت للاستعمار الفرنسيّ في المنطقة هي:

1 - Wagner, K. 2017, p233

2 - Sullivan, D. Hickel, J. 2023

فيتنام وكمبوديا ولاوس، واستقرَّ الاستعمارُ الفرنسيّ في جنوب شبه جزيرة الهند الصينية في سنوات 1860م، 1862م، 1867م، وضمَّ إليه الأجزاء الجنوبية من فيتنام، وفرضَ الحمايةَ على كمبوديا، ثمَّ تقدَّمَ شمالاً نحو الصين، حيث اصطدم مع الصينيين سنة 1884م. وقد أعطت الدول الاستعماريّة لنفسها الحق بالتدخُّل في شؤون المنطقة، وكانت الليبرالية الاقتصاديّة وحماية الحرية الدّينيّة للمسيحيين، هي المُحدِّدات الرئيسة لهذا الحقِّ المزعوم التي جاءت ضمن الخطاب الكولونياليّ المعهود، والمستند إلى فلسفة التمركز حول الذات الأوروبية، التي تختزل العالم إلى غربٍ أوروبي مُتفوق ومُتحضر، مقابل آخر دُونيٍّ ومُتوحش[1]، فلسفةٌ تُعطي الشرعيةَ للمشروع الاستعماري المُوكلة إليه وحده مهمة تمدين الشعوب غير الأوروبية. في دراسته القيمة عن الاستعمار الفرنسيّ في الهند الصينية، ينقل لنا المؤرِّخ الفرنسيّ من أصلٍ فيتنامي بيار بروشو كلمة لجول فيري سنة 1883م، أحد مُنظِّري التوسُّع الاستعماري في فرنسا، أمام غرفة النواب في معرض ردِّه على جورج كليمنصو، يرافع فيها عن المهمة التمدينية والتحضيرية للقوى الاستعماريّة الغربية في المنطقة: « هل الحضارة استفزازية عندما تبحث عن فتح أراض تنتمي إلى التوحش؟ هل فرنسا وبريطانيا استفزازيتان عندما فرضتا على الصين سنة 1860م فتح عددٍ من الموانئ من أجل اتصالٍ مُباشرٍ مع الحضارة؟»[2].

فوفق هذا المنطق، يُصبح الاختراق الاقتصادي للمنطقة والسيطرة عليها من قبل الشركات الأوروبية، وتحقيق التراكم الرأسماليّ، بنهب ثرواتها ومصادرة أراضيها، مهمة مقدسة لنقل الحضارة والتمدُّن لأرض الآخر الشرقي المُتخلف، بل تستحق الإشادة، ويضحى من يجرأ على مقاومة هذه المهمة، وفق هذا المنطق نفسه، مُتوحشًا يستدعي الإبادة. لذا فليسَ غريبًا أن يرتكبَ الاستعمارُ الفرنسيّ أبشع الجرائم في المنطقة الشمالية من فيتنام، التي تُعرف بتونكين، من تدميرٍ للقرى عن بكرة أبيها، وإبادة الكثير من سكانها قتلاً، أو تفقيراً، من خلال تدمير بناهم الاقتصاديّة التقليدية، ممَّا جعلهم عرضةً للأمراض والأوبئة الفتَّاكة. فقد شهدت مناطق شمال ووسط فيتنام بين سنوات 1883 و1896م تراجعًا كبيراً في عدد السّكّان، ينقل إلينا المؤرِّخ الفرنسيّ المتُخصِّص في تاريخ فيتنام، في الفترة الاستعماريّة شارل فورنيو، بعض الشهادات الصادمة عن المُمارسات الوحشية لجنود الجيش الفرنسيّ ومُرتزقته قائلا: « عند مرورنا بالقرى، كان لدينا الحقُّ في قتل ونهب السّكّان الرافضين للخضوع،...كنَّا نقتلُ الكُلَّ،

1 - إبراهيم، 2010، ص289-346

2 - Brocheux, P . p352

رجالاً ونســاءً وأطفالاً، بأعقاب البنادق وبالحراب، إنَّها مجزرة حقيقية». وفي وسط فيتنام عندما اقتحمَ الفرنسيّون قلعةَ هوو سنة 1885م، والتي تضمُّ القصورَ الملكيةَ، ارتكبوا مجزرةً مُروِّعةً راح ضحيتها 1500 فيتنامياً، ثمَّ استباحوا المدينةَ وعاثوا فيها نهبًا وحرقًا، وتدميراً للمعالم والآثار التاريخية[1]. لقد أُلحقت لاوس وكامبوديا بالإمبراطورية الفرنســيّة، واتَّبعت الأساليب نفسها لإخضاعها، ثمَّ اعْتُمد على الأنظمة القانونية والسّياسيّة الكولونياليّة نفسها، التي تهدف إلى تفكيك البُنى الاجتماعية التقليدية للمجتمعات المحلية المُســتعْمَرة، وترسيخ خضوع الأغلبية الفقيرة للأقلية الأجنبية المُسيطرة على مصادر الثروة، إذ كان مضمونُ تلك الأنظمة يستند إلى المركزية الأوروبية في أكثر تجلياتها العنصرية بشاعة، التي تقضي بتفوُّق العرق الأوروبي الأبيض، الذي يُعطيه الحقَّ في الســيطرة عــلى العرق الأصفر الوضيع، ليدمجه قسرًا في الحضارة، كما تظهر في كلمةٍ صريحةٍ لجول فيري أمام غرفة النواب في سنة 1885م: « أُكرر إنَّ هناك حقًا للأعراق المُتفوقة، لأنَّ هناكَ واجبًا بالنسبة إليها، يتمثَّلُ في تمدين الأعراق الوضيعة...»[2].

خاتمة

في هذه الورقة البحثية، حاولنا الكشــف عن بعض النَّماذج من الجرائم الاســتعماريّة في القرنين 19م و20م في إفريقيا وآسيا فحسب، لكن المضمونَ الإبادي، كما الظَّاهرة الاستعماريّة نفسها، تنسحبُ زمانيًا على الفترة التي بدأ فيها الاستعمار في القرن 16م، ومكانيًّا على كُلِّ القارّات التي اسْتُعمرت، بما فيها أمريكا وأســتراليا. ولقد وضَّحنا بدايةً، السياق الذي ظهر فيه الاســتعمار، عقب الاكتشافات الجغرافيَّة الكبرى في القرن 16م، ثم تحوُّله إلى اســتعمارٍ اســتيطانيٍّ، ابتداءً من القرن 17م، وصولاً إلى الصعود الرأسماليّ الأوروبي، الذي حفَّز حركةَ الاستعمارِ التي هدفت بالأساس لنهبِ ثروات الشعوب المُستعمَرة، ودمجها في أسواق المراكز الرأسماليّة في أوروبا، وبهذا يكون الاستعمارُ أعلى مرحلة من مراحل تطور الرأسماليّة كما عبرَّ لينين، ولا يختلفُ الأمرُ هنا، سواء تعلَّق الأمرُ باستعمارٍ في إفريقيا أو في آسيا.

لقد تحرَّكَ الاســتعمارُ الغربي ضمن مشروعٍ إيديولوجيٍّ وخطــابٍ كولونيالي، لا تختلفُ مُفرداته ومُحدِّداته، بل وأساطيره المُؤَسِّسَة، فالمركزيةُ الغربيةُ باعتبارها تمركزاً حول الذات الأوروبية المُتفوقة، التي تعدُّ أنَّ ميزاتها العرقية والثّقافيّة والحضارية، هي مركزٌ للكون، وما عداها، سواء كان عربيًا أو أسودًا

1 - Fourniau, Ch. 1989, p354355-

2 - Brocheux, Ch. p357

أو هنديًّا، يستدعي التهميش والإقصاء، أو منطق الإلغاء، وفق ما يُسمِّيه المُؤرِّخ الأسترالي باتريك وولف في دراسته القيِّمة «الكولونياليّة الاستيطانيّة والقضاء على السّكّان الأصليين»[1]، والذي يعدُّهُ جزءًا بنيويًّا من طبيعة الاستعمار الاستيطاني، والإلغاء في هذا السياق لا يعني سوى إبادة الشعوب المُستعمَرة، بالقتل المُباشر أو بخلق الظروف الموضوعية للمجاعات والأوبئة القاتلة، كما أنَّ تدميرَ البُنى الاقتصاديّة والاجتماعية والثّقافيّة لهذه الشعوب، وهو أيضًا شكلٌ من أشكال الإبادة، يأتي ضمن الإطار العنصري الإقصائي نفسه الذي يفترضُ موقعها الهامشي بل والوضيع، الذي يستحقُّ الدمجَ القسري في دورة المدنية، أو ما ينعته الخطاب الكولونياليّ بالمهمة التمدينية للاستعمار، والتي تعدُّ مُحدِّدًا رئيسًا آخر لهذا الخطاب. وقد توصَّلنا من خلال هذه الورقة إلى نتيجتين، أوَّلا: التأكيد على التلازم بين صعود الرأسماليّة والاستعمار، بحيث يمكن الجزم بأنَّ النظامَ الرأسماليّ الحديث تأسَّسَ على التراكم الناتج مُباشرة عن الاستغلال والنهب الذي مارسه الاستعمار، ثانيًا: التلازم بين الاستعمار- بمختلف أشكاله- والإبادة الجماعيّة، هذه العلاقة البنيوية بينهما تجدُّ جذورها في مضمون الخطاب الكولونياليّ بمُحدّديه الرئيسيين: المركزية الأوروبية، والمهمة التمدينية للاستعمار، التي تستبطن جوهرًا عنصريًّا إقصائيًّا لكُلِّ آخر غير غربي، وهويستبطنُ بدوره الاستعداد للإبادة، وهاتان النتيجتان تستدعيان ضرورة البحث المُعمَّق فيهما، في العناصر المُؤسسة للنظام الرأسماليّ وتطوره منذ ظهوره قبل الاستعمار وأثنائه، إلى مرحلة النظام النيوليبرالي اليوم[2].

وفي تفكيك الخطاب الكولونياليّ، بالبحث في الجذور الفلسفية والتاريخية والدّينيّة للنزوع الغربي نحو التمركُز حول الذات، ومنطق الإقصاء والإبادة للآخر، ولا تتأتَّى هذه الضرورة لمُقتضيات البحث التاريخي فحسب، وإنَّما لأنَّ الراهنَ والمستقبلَ أيضًا يتطلبُ هذا، ذلك أنَّ المشروعَ الاستعماري الغربي، بنزعته المركزية العنصرية والإبادية، لا يزالُ يعيُد إنتاجَ نفسه بما تتطلبه كل فترة تاريخية، ويمارس أساليبه الإبادية المعهودة، ويستحضر خطابه الإيديولوجي نفسه، حتى وإن حاولَ تنميقه أحيانًا، وقد شاهدنا في الماضي القريب، ما ارتكبه مثلاً من جرائم في حقِّ الشعب الأفغاني والعراقي، وما يرتكبه حاليًّا في غزة، ولا تزالُ طرقَ التجويع والتفقير من خلال العقوبات والحصار، جزءاً أساسيًّا من استراتيجيته لإخضاع الشعوب، كما في اليمن وسورية ولبنان وكوريا الشمالية.

1 - Wlofe, P. 2006, p387- 409

2 - Lloyd, D. & Wolfe, P. 2015, p1- 10

المراجع والمصادر

باللغة العربية:

- ابراهيم، ع. (2010) المركزية الغربية، منشورات الاختلاف، الجزائر.
- خوجة، ح. (2005) المرآة، تعريب محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر.
- دودو، أز (1975) الجزائـر في مؤلفـات الرحالين الألمـان(1830-1855م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- سعد الله، أ. (1992) الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900، الجزء 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- كيبري، ب. (1988) تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع، المشرف على المجلد ج. ت. نياني، اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.

باللغة الانكليزية:

- Alexander, N. (2013) Three Essays on Namibian History, The Estate of Neville Edward Alexander, South Afric.
- Benot, Y. (2001) Massacres coloniaux 19441950- :la IVé République et la mise au pas des colonies françaises, La découverte, Paris.
- Bley, H. (1971) South West Africa Under German Rule, Heinemann, London.
- Bottomore, T. (1983) A Dictionary of Marxist Thought, Blackwell Publishers, Oxford.
- Bridgman, J. and Worley, L.J. (1997) « Genocide of the Herero », in S.Totten, W. Parsons and I.Charny, Century of Genocide, Eyewitness Accounts and critical Views, New York and London, Garland Publishing.
- Burrows, C. (1903) Curse of Central Africa, Stanford libraries, London.

■ Calmeyn, M. (1912) Au Congo belge, chasses à L'éléphant, les indigènes, l'administration, Ernest Flammarion et fils Editeurs, Paris.

■ Castelein, A. (1907) l'Etat du Congo, ses origines, ses devoirs, Le réquisitoire de ses accusateurs, Goemaere, Bruxelles.

■ Césaire, A. (1955) Discours sur le colonialisme, Présence africaine, Paris, 1955.

■ Christian, P. (1846) L'Afrique Française l'empire de Maroc et le désert de Sahara, A.Barbier éditeur, Paris.

■ Church, R.J. (2002) Modern colonisation, Hutchinson›s University Library, London.

■ Condos, M. (2017) The Insecurity State: Punjab and the Making of Colonial Power in British India, Cambridge University Press, Cambridge.

■ Courrière, Y. (1968) les Fils de la Toussaint, Fayard, Paris.

■ Dieuzaide, V. A. (1880) Histoire de l'Algérie 18301878-, Tome 1, Imprimerie de l'association ouvrière, Oran.

■ Dirk, A. (2013) Moses, Genocide, Australian Humanities Review , 55.

■ Doyle, A. (1909) The Crime of the Congo, Doubleday, Page and Company New York.

■ Drechsler, H. (1980) Let us die fighting : the struggle of the Herero and the Nama against German Imperialism, Zed Press, London.

■ Ferro, M. (2014) Le livre noir du colonialisme XVIe-XXLe Siécle : de l'extermination à la repentance, Dar Kitab El Arabi, Alger.

■ Fourcade, M. (1994) Les dénommées « tribus criminelles » de l›Inde britannique : violence coloniale, violence traditionnelle, Purusārtha, n16, Centre d'études de l'Inde et de l'Asie du sud, Paris.

■ Fourniau, Ch. (1989) Annam-Tonkin 18851896-, Lettrés et paysans vietnamiens

face à la conquête coloniale, L›Harmattan, Paris.

■ Gallois, W. (2012) Dahra and the Historie of Violence in Early Colonial Algeria, The French Colonial Mind, Vol 2, University of Nebraska Press, Lincoln.

■ Gallois, W. (2013) Genocide in nineteenth-century Algeria, Journal of Genocide Research, Vol 15 n°1, Routledge, London.

■ Gewald, J.B. (1999) Herero Heroes : A Socio-Political History of the Herero of Namibia, 18901923-, James Currey, Oxford.

■ Goldzeiguer, A.R. (2002) Aux origines de la guerre d'Algérie 19401945- de Mers-el-Kébir aux massacres du Nord-Constantinois, Casbah Edition, Alger.

■ Gouvernement Générale, l'Afrique occidentale française, La Côte d'Ivoire, Edition Crêté, Imprimerie Typographique, Cordeil, 1906.

■ Hochschilid, A. (1998) Les Fantômes du roi Léopold, Un holocauste oublié, Paris, Belfond.

■ Kateb, K. (2010) Européens, « indigènes » et juifs en Algérie '18301962-), Edition el MAARIFA, Alge.

■ Kotek, J. (2008) Le génocide des Herero, symptôme d'un Sonderweg allemand, in Revue d'Histoire de la Shoah, N° 189, Éditions Mémorial de la Shoah.

■ Le Cour Gandmaison, O. (2005) Coloniser, Exterminer. Sur la guerre et l'État colonial, Fayard, Paris.

■ Lindqvist, S. (1998) Exterminez toutes ces brutes, Le Serpent à Plumes, Paris.

■ Lloyd, D. & Wolfe, P. (2015) Settler colonial logics and the neoliberal regime, Settler Colonial Studies, Routledg.

■ Lloyd, N. (2011) The Amritsar Massacre : The Untold Story of One Fateful Day, I.B.Tauris, London.

■ Maculay, T.B. (1835) Minute on Indian Education, February 2, 1835.

■ Mekhaled, B. (2000) Chroniques d'un massacre 8 mai 1945 : 8 mai 1945 Sétif, Guelma, Kherrata, Edition Syros, Paris.

■ Pélissier, E. (1854) de Reynaud, Annales Algériennes, Tome1, Imprimerie militaire, Paris.

■ Stenmetz, G. and Hell, J. (2006) The Visual Archive of Colonialism: Germany and Namibia, Public Culture 181-, Decembre 2006, Duke University Press, Durham.

■ Sullivan, D. (2023) Capitalism and extreme poverty: A global analysis of real wages, human height, and mortality since the long 16th century, World Devolopment volume 161,January 2023, Elsevier.

■ Viti, F. (2017) les massacres de Diapé et de Makoundié (Côte-d)Ivoire, juin 1910) Entre répression coloniale et violences interafricaines, Cahiers d)études africaines, Éditions de l'EHESS, n° 225, 2017.

■ Wagner, K. (2016) Calculated to Strike Terror: The Amritsar Massacre and the Spectacle of Colonial Violence, Past & Present, 233, 1, 2016.

■ Wlofe, P. (2006) Settler colonialism and the elimination of the native, Journal of Genocide Research, 8(4), December, Routledge.